# الفصل الثانى
# الأغراض الشعرية فى القصة القديمة

## خصوصية الغرض الشعرى فى القصة :

" الغرض : هو الهدف الذى يرمى إليه ... ، والبغية والحاجة والقصد ، يقال فهمت غرضك : قصدك " [١] .

فالغرض الشعرى هو هدف الشاعر من قوله الشعر ، أو هو المعنى الذى يرغب فى توصيله إلى مقصوده الذى وجه إليه شعره .

وإن كان وهب أحمد رومية يرى أن مصطلح " الأغراض " يدمر الإحساس بوحدة القصيدة " [٢]، إلا أن هذا المفهوم لا يوصلنا إلى ما ذهب إليه القول السابق حال دراسته مضموماً إلى نص أو حادثة قصصية ، ذلك لأن الموقف القصصى غالباً ما يحتاج إلى نص ذى معنى واحد يتناسب معه ، وهو ما يتمشى مع أصل النشأة الشعرية ؛ إذاً كان الشعر فى صورته الأولى مجموعة مقطعات ، كل مقطعة تمثل قول الشاعر فى موقف ما يصفه أو حادثة ما يعلق عليها [٣].

ودراسة الأغراض الشعرية فى توظيفها داخل عمل قصصى ، لا تتم بمعزل عن الإطار الأعم الذى وردت فيه وهو الخبر ، أو القصة ، أو الحكاية ، ذلك لما لهذه الأشكال القصصية من تأثير فى تحديد الوجهة المعنوية للغرض الشعرى . بالإضافة إلى ما تشكله هذه الأخبار – فى بعض الأحيان – من خلفية مثيرة تدعم النص الشعرى فيها ، يضاف

---

١- المعجم الوجيز ، ص ٤٤٨ .
٢- دكتور وهب أحمد رومية ، " شعرنا القديم والنقد الحديث " ، ص ١٤٩ .
٣- انظر - أحمد أمين ، " ظهر الإسلام " ، ( القاهرة ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ،١٣٦٤ هـ ، ١٩٤٥ م ) جـ ١ ، ص ١٣٥ .

إلى ذلك أيضاً ردود أفعال المتلقى الداخلى فى القصة ، والتى تؤثر بدورها على وجهة رد فعل المتلقى الخارجى ، فالنص منفصلاً قد يحمل قيمة معنوية راقية ، إلا أن الموقف القصصى وما يعكسه من رد فعل المتلقى داخل الحدث ، قد يحقر أو يقلل من هذه القيمة من ذلك – مثلاً – المرثية الواردة فى الأمالى – فى إطار حكاية على لسان الأصمعى وهو أحد شخصيات الحدث – والتى ترثى فيها زوجة زوجها وتقول فيها :

- دكتور سيد حنفى حسين ، " الشعر الجاهلى ، مراحله واتجاهاته الفنية " ( القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ م ) ، ص ٢٧ .

فمن للسؤل ومن للنوال ومن للمقال ومن للخطب
ومن للحماة ومن للكماة إذا ما الكماة جثو للركب
إذا قيل مات أبو مالك فتى المكرمات قريع العرب
فقد مات عز بنى آدم وقد ظهر النكد بعد الطرب

هذه المرثية تبدو جادة المعانى ، فتحرك نفس سامعها نحو مشاركة المرأة فى رثائها زوجها ، لكن نجد أن المعنى تحول إلى اتجاه ساخر بعد أن سألها الأصمعى فى القصة قائلاً : " من هذا الذى مات هؤلاء الخلق كلهم بموته ؟ فقالت : أو ما تعرفه ؟! فأجابها بالنفى ، فقالت : " هذا أبو مالك ختن أبى منصور الحائك ؛ وعندئذ رد عليها عليك لعنة الله ، والله ما ظننت إلا أنه سيد من سادات العرب " [1]، وعندها انقلب المعنى إلى سخرية ففقدت الأبيات احترام المتلقى لمعانيها وتقديره الأول لها .

والغرض الشعرى فى إطار قصة يخالف الغرض ضمن قصيدة طويلة ، فالقصة غالباً لا تحمل فى طياتها إلا غرضاً واحداً ، يتناسب والموقف الذى أنشد فيه ، من ذلك

١- الأمالى جـ ١ ، ص ٦٢ .

مثلاً – القصة التى أوردها صاحب " العمدة " ، والتى مدح فيها أعرابى علياً ابن ابى طالب بعد أن قضى له حاجة كانت له ، وكساه حلة كانت لديه ... فقال الرجل :

فسوف أكسوك من حسن الثنا حللاً كسوتنى حلة تبلى محاسنها

كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به

فكل عبد سيجزى بالذى فعلا [1]

فجاءت الأبيات فى موضوع واحد يتناسب مع الحدث ولا يتجاوز إلى غيره من موضوعات الشعر ، وهو المقصود من أن القصة لا تحتمل إلا غرضاً واحداً .

وإذا ورد فى القصة أكثر من غرض أو أكثر من موضوع ، فإن ذلك يكون بانفصال زمن الإنشاد بين الموضوع والموضوع الآخر ، كما يغلب أن يكون لكل موضوع وزنه وقافيته مما يؤكد أن ورود أكثر من غرض فى القصيدة إنما لضرورة الحدث التى حتمت ذلك ، من ذلك القصة التى وردت فى كتاب " مصارع العشاق " والتى دارت أحداثها بين ليلى الأخيلية والحجاج . والقصة تقول :

" أخبرنا أبوجعفر بن المسلمة فيما أذن لنا فى روايته ، أن أبا القاسم إسماعيل بن سعيد بن سويد أخبرهم ... قال : حدثنا أبو بكر عمر بن القاسم الأنبارى حدثنى أبى حدثنا أحمد بن عبيد عن أبى الحسن المدائنى ، عمن حدثه عن مولى لعنبسة بن سعيد بن العاص قال : كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد إذا دخل على الحجاج ، فدخل يوماً فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج غير عنبسة فقعدت ، فجىء الحجاج بطبق فيه رطب ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءنى به ، ثم جىء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون

---

١- العمدة ، ص ٢٩ .

بشيء إلا جاءنى منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدى أكثر مما عندهم ، ثم جاء حاجب فقال : امرأة بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرت إليها فإذا هى امرأة قد أسنت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هى ليلى الأخيلية فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ما أتى بك ؟ فقالت : إخلاف النجوم [١] ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرفد ، فقال لها صفى لنا الفجاج [٢] ، فقالت ، الفجاج مغبرة ، والأرض مقشعرة ، والمبرك معتل [٣] وذو العيال مختل ، والهالك للقل [٤] ، والناس مسنتون [٥] ، ورحمة الله يرجون ، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة [٦] ، لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً [٧] ولا عافطة ولا نافطة ، أذهبت الأموال ومزقت الرجال ، وأهلكت العيال ، ثم قالت : إنى قد قلت فى الأمير قولاً ، قال : هاتى فأنشأت تقول :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ ... ـمنايا بكف الله حيث تراها

أحجاج لا تعطى العصاة مناهم ... ولا الله يعطى للعصاة مناها

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

سقاها فرواها بشرب سجاله ... دماء رجال حيث مال حشاها

---

١- إخلاف النجوم : تريد أن النجوم التى يكون بها المطر قد أخلفت فلم تجد وضنت بالغيث .
٢- الفجاج : جمع فج : الطريق الواسع ووصفها بالاغبرار كناية عن القحط .
٣- أرادت الإبل ، فأقامت المبرك مكانها لعلم المخاطب إيجازاً واختصاراً .
٤- أى من أجل القلة وهى العدم والفقر .
٥- مقحطون .
٦- أى ملصقة بالأرض الملساء وتقصد الهلاك .
٧- الهبع : الفصيل ينتج فى الصيف ، والربع : الفصيل ينتج فى الربيع .

إذا سمع الحجاج رن كتيبة أعد لها قبل النزيل قراها

أعد لها مسمومة فارسية بأيدى رجال يحلبون صراها

فما ولد الأبكار والعون مثله ببحر ولا أرض يجف ثراها

قال : فلما قالت هذا قال الحجاج : قاتلها الله ما أصاب صفتى شاعر مذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد فقال : والله إنى لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حسبك ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها ، قال : فأمر بإحضار الحجام ، فالتفت إليه فقالت : ثكلتك أمك أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً وهم بقطع لسانها ، وقال : اردها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد وأمانة الله يقطع مقولى ثم أنشأت تقول :

حجاج أنت الذى ما فوقه أحد إلا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت وأنت للناس فى جنح الدجى تفد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير إلا أنا لم نر امرأة قط أفصح لساناً ، ولا أحسن محاورة ، ولا أملح وجهاً ، ولا أرصن شعراً منها ، فقال : هذه ليلى الأخيلية ، التى مات توبة الخفاجى من حبها ، ثم التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، فقالت : نعم أيها الأمير هو الذى يقول :

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها وقام على قبرى النساء النوائح

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح

وأغبط من ليلى بما لا أنال له ألا كل ما قرت به العين صالح

لـــو أن ليلـــى الأخيليلـــة سلمـــت علـــى ودونـــى تربـــة وصفـــائح
حجاج أنت شهـاب الحرب إن لقحت وأنت للناس فى جنح الدجى تفـد

فقال لها : زيدينا يا ليلى من شعره ، فقالت : هو الذى يقول :

حمـــامة بطـــن الـــواديين ترنمـــى سقاك من الغر الغوادى مطيرهـا
أبينـــى لنـــا لازال ريشـــك ناعمـــاً ولا زلت فى خضراء غض نضيرهـا
وكنـت إذا مـا جئـت ليلـى تبرقعـت فقد رابنى منهـا الغداة سفورها
يقـــول رجـــال لا يضيـــرك نأيهـــا بلى كل ما شف النفوس يضيرهـا
بلـى قـد يضير العين أن تكثـر البكـى ويمنـــع منهـــا نومهـــا وسرورهـــا
وقـد زعمـت ليلـى بـأنـى فـاجـر لنفسـى تقاهـا أو عليهـا فجورهـا

فقال لها الحجاج : يا ليلى ما الذى رابه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير كان يلم بى كثيراً ، فأرسل إلى يوماً إنى آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتانى سفرت فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والذى أسأله أن يصلحك ، غير أنه قال لى مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت تقول :

وذى حاجـــة قلـــنا لـــه لا تـــبح بهـــا فلـيس إليهـا مـا حييـت سـبيل
لنـــا صاحـــب لا ينبغـــى أن نخونـــه وأنـــت لأخـــرى فـــارغ وحـــليل

فلا والذى أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت بينى وبينه ، قال ثم ماذا ؟ قالت : لم يلبث أن خرج فى غزاة له فأوصى ابن عمه إذا أتيت الحاضرة من بنى عبادة ابن عقيل ، فناد بأعلى صوتك :

عفـــا الله عنهـــا هـــل أبـــيتن ليلـــة  من الدهر لا يسرى إلى خيالها " [1]

[1]

من القصة السابقة يتضح أن القصة القديمة تحتمل أكثر من غرض ، ويكون ذلك لهدف فنى فيها ، إذ تقتضى حواراتها وأحداثها مثل هذا التحول فى الغرض .

أما إذا كان هناك اتصال فى الأغراض ، فيكون ذلك بورد قصيدة كاملة فى الحدث ، ويكون الحدث يقتضى ذلك ، كأن يكون الحدث فى صورة ترجمة لشاعر ، فترد فيها القصيدة كاملة على اعتبار أنها أثر من آثار الشعر ، سواء ذكر موقف إنشاد القصيدة الخاص ، أم اكتفى صاحب الترجمة بذكر الحياة العامة للشاعر ، أو أن تكون القصيدة كاملة مرتبطة بموقف مشهور فترد كلها بأغراضها وموضوعاتها ، وغالباً ما يستخدم المترجم لشخصية الشاعر جملة ... " وأنشد قصيدته التى أولها ... "، ثم يتبع ذلك بقوله : " وقال فيها ... " ،" وجاء فيها ... " ، وهكذا إذا لم يكن يريد أن يورد القصيدة جميعها فى الترجمة أو فى الموقف الذى يقصه ، وهى طرق متبعة فى كتب مثل " الأغانى " و" الأمالى " و" العقد الفريد " وغيرها من المصنفات القديمة .

من أمثلة ورود القصيدة كاملة ، ما أورده شمس الدين الذهبى صاحب كتاب " تاريخ الإسلام " ، عند التعرض لقصة كعب ، إذ أفرد فى كتابه لكعب موضعاً أسماه " قصة كعب بن زهير " [2] ، فأورد القصيدة التى أوردها كعب فى اعتذاره للرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان فى القصيدة الغزل ، من ذلك قوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول .....

---

١- مصارع العشاق ، ص ٤٠٠ .

٢- شمس الدين الذهبى " تاريخ الإسلام " ، ط١ ( بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٤٠٧، ١٩٨٧ ) ، جـ ١ ص ٦١٥ .

وفيها المدح فى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به ...

وفيها الاعتذار والرجاء ، من ذلك قوله :

أنبئـــت أن رســـول الله أوعـــدنى والعفـــو عنـــد رســـول الله مـــأمول

وإذا كان شمس الدين الذهبى أوردها كاملة ، إلا أن بن قتيبة فى ترجمة كعب يورد الموقف ويورد القصيدة ، ولكنه يقطع الإنشاد بقوله : " فلما بلغ قوله .... " [1]، إذ أراد أراد ابن قتيبة أن يصل إلى أبيات يرى أنها الأهم فى القصة .

وقد تكون القصيدة فى ترجمة الشعر كاملة ، ولكنها فى موضوع واحد ، من ذلك ما ورد فى ترجمة ابن قتيبة للنابغة الجعدى ، إذ قال فى أثناء الترجمة : " وهو القائل ... " ثم أورد القصيدة التالية :

الحمـــد للـــه لا شـــريك لـــه مـــن لم يقلهـــا فنفســـه ظلمـــاً

المولـــج الليـــل فـــى النهـــار وفـــى الليـــل نهـــاراً يفـــرج الظلمـــا

الخـــافض الرافـــع الســـماء علـــى الـــ أرض ولـــم يـــبن تحـــتها دعمـــا

الخـــالق البـــارىء المصـــور فـــى الـــ أرحـــام مـــاءً حـــتى يصـــير دمـــا

مـــن نطفـــة قدهـــا مـــقدرهـــا يخلـــق منهـــا الأبشـــار والنســـما

ثـــم عظـــاماً أقامهـــا عصـــب ثمـــت لحمـــاً كســـاه فالـــتأما

ثـــم كســـا الـــريش والعقـــائق أبـــ شـــاراً وجلـــداً تخـــاله أدمـــا

والصـــوت واللـــون والمعـــايش والـــ أخـــلاق شـــتى وفـــرق الكـــلما

---

١- الشعر والشعراء ، ص ٨١ .

ثمـــت لابـــد أن سيجمعـــكم واللـــه جهـــرا شهـــادة قـــسما

فائـــتمروا الآن مـــا بـــدا لكـــم واعتصمـــوا إن وجـــدتم عصـــما [1]

والقصيدة طويلة تدور فى ذات المعاني وفى ذات الموضوع .

وإذا كانت القصة تحوى موضوعاً واحداً فإنه فى الغالب ما تتصف به ، فابن قتيبة يقول فى كتابه " الشعر والشعراء " : " وهذه عندى قصة الكميت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب " [2] ، فالقصة هنا اتصفت بأنها تدور حول مدح الكميت لآل أبى طالب .

والقصة تؤثر فى معانى الأبيات الواردة فيها ، فالأبيات التى تروى من غير موقف تعتمد على ذاتها – إن جاز التعبير – فى تحديد معانيها ، أما تلك التى ترد فى موقف قصصى فإن القصة تسهم فى توجيه معانيها ، وقد ظهر ذلك فى قصة الأصمعى التى رثت فيها امرأة زوجها ، إذ جاءت معانى الأبيات تحمل فى ذاتها حزن المرأة العميق لفقد زوجها ، أما حينما تدخل الموقف القصصى ، وجه معانى الأبيات ذاتها اتجاهاً ساخراً .

## الأغراض المقيدة والأغراض المطلقة :

### [١] الأغـراض المطلقـة *The Free Purpose* :

يمكن التمييز بين نوعين من أنواع الشعر ، **الأول** : وهو ورود الأبيات من غير حادثة القول ، نجد ذلك فى كتب المختارات ؛ مثل " المفضليات " ، و " الحماسة " ، وغيرها مما يشابهها فى المنهج . ففى مختارات أبى تمام فى كتابه " الحماسة " ، نجده يورد الأبيات فيقول قبلها : " وقال آخر ... " ، " وقال فلان ... " ، " وقال بعضهم ... " [3] ، فالأبيات

---

١- الشعر والشعراء ، ص ١٨٠ .
٢- الشعر والشعراء ، ص ٣٠ .
٣- ديوان الحماسة .

يوردها من غير ذكر الحادثة التى وردت فيها ، ولذا يمكن أن يطلق عليها " أغراض مطلقة " أى غير مقيدة بحدث .

وفى كتاب " الأفعال " : " أطلقت كل محبوس : خليت سبيله " [١] ، ويقال : " الطليق : الأسير الذى أطلق عنه إسار ، وخلى سبيله " [٢] ، " والمطلق : اللا مشروط بغيره أو الكامل المستغنى بذاته عن سواه " [٣].

[٢] الأغـراض المقيـدة ***The Attached Purpose*** :

النـوع الثـانى : تلـك الأبيـات التـى تـذكر أثنـاء الحادثـة التـى أدت إلى إنشادها ، فهى أغراض مقيدة ، ذلك لأن الحدث قيد معانيها فى اتجاه موافق لاتجاهه كما أنها مقيدة بالسبب الذى أدى إلى الإنشاد ، فالقصة تمكن القارىء من معرفة السبب الذى دفع الشاعر لإنشاد هذه الأبيات ، ولذا فهى سببية . فالسبب فى اللغة : " الحبل أو ما يتوصل به إلى غيره " [٤] .

---

١- ابن القوطية ، " كتاب الأفعال " ، تحقيق على فوده ، ط٢ ( القاهرة ، مكتبة الخانجى ،١٣٧١ هـ ، ١٩٥٢ م ) ص ١١٨ .

٢- الرازى ، " مختار الصحاح " ، ص ٢٨١ .

٣- الموسوعة الميسرة ، ص ١٧١٣ .

٤- الطاهر الزاوى ، " مختار القاموس " ، ط ١ ( القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م ) ص ٢٨٦ .

ولذا فالأغراض على اختلاف تقسيماتها [1] فى وريدها فى قصة ما ، تتأثر معانيها باتجاه الحدث فى القصة ، كما تقوم القصة بذكر السبب الذى مثل التجربة الشعرية بالنسبة للشاعر .

ويقدم المؤلف نماذج من قصص جاء فيها الشعر فى موضوعات متفرقة ، وكيف أن القصة أضافت إلى الشعر الوارد فيها اتجاهات جديدة ، قيدت معانى الشعر لدى المتلقى ، ربما فى وجهة غير التى يقصدها .

فالمدح – مثلاً – تقوم القصص بتبيين الدوافع التى حركت الشاعر نحو مدح شخص ، وفيها يكون الشاعر مدفوعاً برغبته فى الحصول على عطايا الممدوح – وهى الحالة الغالبة – حيث يكون المدح سابقاً على العطاء ، إذ يقصد الشاعر باب من يظن فيه الجود ، حيث يقوم بحفز هذا الجود بإنشاد النصوص المادحة ، فتتحرك نفس الممدوح فيعطى المادح ما يراه كفؤاً لمدحه ، أو يترك الاختيار للمادح لطلب ما يريد ، ومما يؤكد ذلك قول القائل :

" هذه المدحة فأين المنحة " [2].

---

١- يقسم البعض الشعر إلى أربعة أركان ؛ وهى المدح والهجاء والنسيب والرثاء ، وهناك تصنيف آخر يرى تقسيم الشعر إلى أصناف أربعة ؛ الهجاء والمديح والحكمة واللهو ، ويتفرع منها فنون ؛ فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ويكون من اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر ، وذهب فريق ثالث إلى تقسيم الشعر إلى نوعين : وهما المدح والهجاء ويندرج منها بقية فنون الشعر ، وقد رجحت مصادر عدة تقسيم الشعر إلى هذين النوعين على اعتبار أنه أصوب التقسيمات ... انظر :
- ابن رشد ، " تلخيص كتاب الشعر " ، ص ٥٤ .
- الصناعتين ، ص ١٤٨ .
- " العمدة " ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .
- قدامة بن جعفر ، " نقد الشعر " ، تحقيق كمال مصطفى ، ط ٣ ، ( القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م) ص ١٠٠ ، وما بعدها .
- ابن خلدون " المقدمة " ، ( القاهرة ، مكتبة عبد السلام بن شقرون ، د – ت ) ، ص ٥١٣

٢- الأبشيهى ، " المستطرف فى كل فن مستظرف " ، تحقيق دكتور عبد الله أنيس الطباع ، ( بيروت ، دار القلم ١٤٥١ هـ ، ١٩٨١ م ) ، ص ٢٣٧ .٥١٣

فالمدح مدفوع بالرغبة ، والرغبة مدفوعة بالحاجة ، والممدوح يعلم ذلك ، فما إن ينته الشاعر من المدح يطلب الممدوح منه أن يفصح عن حاجته ، فها هو المهدى يسأل أبا دلامة بعد إنشاده ، فيقول له : " سل حاجتك " (١).

من المواقف التى تشير إلى ارتباط المدح بالعطاء ؛ ذلك الموقف الذى دخل فيه شخص يدعى ابن دارة على عدى بن حاتم ، فقال له : " إنى مدحتك ، فقال أمسك حتى آتيك بمالى ، ثم امدحنى على حسبه ، فإنى أكره أن لا أعطيك ثمن ما تقول ، لى ألف شاه وألف درهم ، وثلاثة أعبد ، وثلاثة إماء ، وفرسى هذا حبس فى سبيل الله ، فامدحنى على حسب ما أخبرتك ، فقال :

تحن قلوصى فى معد وإنما تلاقى الربيع فى ديار بنى ثعل
وأبقى الليالى من عدى بن حاتم حساماً كنصل السيف سل من الخلل
أبوك جواد ولا يشق غباره وأنت جواد ما تعذر بالعلل
فإن تتقوا شراً فمثلكم اتقى وإن تفعلوا خيراً فمثلكم فعل

فقال له عدى : امسك ، لا يبلغ مالى أكثر من هذا " (٢).

فالموقف القصصى – فى القصة السابقة - أكسب النص الشعرى حيوية ، إذ جعل المتلقى فى حالة ترقب لما سيقوله الشاعر من القول ما هو يكافىء ما ذكره عدى من حدود عطاياه التى سماها للشاعر ، فالنص إن ذكر مطلقاً من غير القصة ، كان مجرد نص مدح فيه من المعانى ما فيه ، لكن ارتباطه بحدث جعله مقيداً عند المتلقى بما رصد للشاعر من جائزة تكافىء شعره .

---

١- " طبقات الشعراء " ، ابن المعتز ، تحقيق عبد الستار أحمد فرج ، ط ٤ ( القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، د . ت ) ، ص ٥٨ .
٢- العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ .

وتشير المواقف القصصية إلى أن الممدوح قد يضع الشاعر فى تحد ، فكما يرصد له جائزة إن أفلح ، يضع أمام عينيه عقاباً إن أخطأ ولم يحسن ، من ذلك الموقف الآتى :

" أقبل أعرابى إلى داود بن المهلب ، فقال له : إنى مدحتك فاستمع ، قال على رسلك ، ثم دخل بيته ، وتقلد سيفه وخرج ، فقال : قل ، فإن أحسنت حكمناك وإن أسأت قتلناك ، فأنشأ يقول :

آمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشى والبؤس والفقر

فأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... من الحدثان إذا شددت به أزرى

له حكم لقمان وصورة يوسف ... وملك سليمان وعدل أبى بكر

فتى تفرق الأموال من جود كفه ... كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال : قد حكمناك ، فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى ، قال : بل على قدرى ؛ فأعطاه خمسين ألفاً ، فقال له جلساؤه : هلا حكمت على قدر الأمير ، قال : لم يك فى ماله ما يفى بقدره ، قال له داود : أنت فى هذه أشعر منك فى شعرك ، وأمر له بمثل ما أعطاه " [1] .

فالقصة هنا تصنع خلفية مثيرة للنص الشعرى ، بل وتضيف نصاً آخر لم يكن للمتلقى أن يحيط به ، لولا ورود الشعر فى القصة ، إذ تضيف نصاً نثرياً يتمثل فى قول الشاعر : " لم يك فى ماله ما يفى بقدره " ، ولم يلجأ الشاعر إلى نص آخر شعرى ، ذلك لأن الموقف يشير إلى أنه جهز نصاً شعرياً واحداً ، ولما اطمأنت نفسه إلى فوزه بعطاء الممدوح اكتفى بذلك ولم ينشد مرة أخرى بعد سؤال الناس له .

---

١- العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ٢٩٨ .

والقصة قد تضم نصين فى حدث واحد ، فيحدث التفاوت بين معانيهما وأغراضهما إضافة معنوية إلى أحدهما ، لم تك لتحصل هذه الإضافة إذا ذكر النصان على إطلاقهما متفرقين ، من ذلك قصة أبى دلامة مع المهدى والقصة تقول :

" ولدت لأبى دلامه بنت ليلاً ، فأوقد السراج ، وجعل يخيط خريطة شقق ، فلما أصبح طواها بين أصابعه ، وغدا بها إلى المهدى فاستأذن عليه ، وكان لا يحجب عنه فأنشده :

لو كان يقعد من فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا من شعاع الشمس فى درج إلى السماء فأنتم أكرم الناس

فقال له المهدى : أحسنت والله أبا دلامة ، فما الذى غدا بك إلينا ؟ قال : ولدت لى جارية يا أمير المؤمنين ؛ قال : فهل قلت فيها شعراً ؟ قال : نعم ؛ قلت :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء إلى لباتها وأب لئيم

قال : فضحك المهدى ، وقال فما تريد أن أعينك به فى تربيتها أبا دلامه ؟ قال تملأ هذه يا أمير المؤمنين ، وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه ، قال المهدى : وما عسى أن تحمل هذه ؟ قال : من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير ، فأمر أن تملأ مالاً ، فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار فدخل فيها أربعة آلاف درهم [1].

يلاحظ من أحداث القصة أن المهدى لم يتحرك فى البداية لمدح أبى دلامة بالعطاء ، إلا عندما وصف أم ابنته بالسوء ويصف نفسه باللؤم فى نص آخر غير نص مدح

١- العقد الفريد ، جـ١ ، ص ٣٠٢ .

المهدى ، وهنا استدرج أبو دلامة المهدى لمنطقة التفضل مما دفعه ليسأله عما يريد ، فوجود نصين فى الحدث أدى إلى إبراز شرف المهدى على أبى دلامة ، وهنا تحتم العطاء عليه .

ومن هنا فالقصة تبين السبب وراء الإنشاد ، فيصبح النص سببياً ، إذ تعطى القصة الدوافع التى دفعت الشاعر لينشد نصه ، فالشاعر تحركه رغبة ما لا يتحرك فى حال عدم وجودها ، لذا يقال : " كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب " (١).

والنص الشعرى وحده لا يبين الحالة التى أطربت أو أرهبت الشاعر لينشد ، فهذا هو دور السرد فى القصة .

وكما أن للشعراء حالات تحركهم ، فللممدوحين – أيضاً – أحوال تحركهم ، فكما يقول ابن طباطبا : " فالنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفها ، ولها أحوال تتصرف بها ، فإذا ورد عليها فى حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت له أريحية وطرب " (٢) .

هذا الطرب من شأنه أن يحرك أيديهم بالعطاء والجود والمنح ، إذاً فعلى الشاعر أن يعرف بفراسته كيف يحرك ممدوحه إلى الانفعال بشعره ؛ يقول ابن طباطبا :

" ولحسن الشعر ... موافقته للحال التى يعد معناه لها ، كالمدح فى حال المفاخرة وحضور من يكتب بإنشاده من الأعداء ، ومن يسر به من الأولياء ، وكالهجاء فى حال مباراة المهاجى والحط منه ؛ حيث ينكى فيه استماعه له ، كالمراثى فى حال جزع المصاب

١- الصناعتين ، ص ٣٥ .
٢- عيار الشعر ، ص ١٥ .

وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه ، وكالاعتذار والتنصل من الذنب عند سل سخيمة المجنى عليه " [1] .

ومن هنا فإنه لابد وأن يحدث تلاق بين ما يقوله الشاعر ونفس المقصود بالنص ولا يعلم هذا كله إلا من خلال السرد القصصى ؛ فالنص الشعرى وحده لا يفى بإيراد كل هذه المعانى ولا إيضاح موقف المتلقى ، ولذا يكتسب النص أهميته أحياناً داخل السرد من خلال اهتمام المتلقى به ، فقد يسقط النص بانكسار رد فعل المتلقى الداخلى فى الحدث

وتفاجئنا المواقف القصصية بمفارقات يواجهها الشاعر حين يمدح من يرغب فى عطاياهم ؛ من ذلك القصة التالية :

" قصد أعرابى المأمون ، فقال له : قد قلت فيك شعراً ، قال : أنشده ، فقال :

حـــياك رب الـــناس حـيـاكـــا إذ بجمـــــال الـوجـــــه رقـاكـــــا

بغـــداد مـن نـورك قـد أشـرقت وأورق العـــــــود بـجـدواكـــــــا

فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابى ، وأنا قد قلت فيك شعراً وهو:

حـــياك رب النـــاس حـــياكا إن الـــذى أملـــت أخطاكـــــا

أتيـــت شخصـــاً قـد خـلا كيسـه ولـــو حـــوى شـــيئاً لأعطاكـــا

فقال : يا أمير المؤمنين إن بيع الشعر بالشعر ربا ، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب فضحك ، وأمر له بمال [2].

---

١- المصدر السابق ، ص ١٦ .
٢- حلبة الكميت ، ص ٨٧ .

كأن الممدوح برده الشعرى يقول للمادح : " إذا كنا نعطيك ، فإنا لن نعطيك لشعرك ، فشعرك عندنا مثله ، إنما نعطيك لأنا أهل عطاء ، وهذا ما دفع الأعرابى إلى الاستجداء بعيداً عن الشعر .

إذاً فالقصة تعطى خلفية مثيرة ، توجه النصوص الشعرية داخلها اتجاهات تحتمها طبيعة السرد ومجريات الحدث .

وكما تساهم القصة فى توضيح سبب إنشاد غرض كالمدح ، تفعل ذلك مع الأغراض والموضوعات الشعرية الأخرى الداخلة فى نسيج سردها .

فغرض آخر كالفخر ، القصة تجعل المتلقى يقف وراء الأسباب التى دفعت الشاعر لأن يفخر .

والفخر : " هو التغنى بالأمجاد ، ويكون عادة بإدعاء أشياء للنفس أو للقبيلة ليست فى متناول الجميع بيسر وسهولة " (١) .

وتشير المواقف القصصية إلى أن الشاعر أو الشخصية التى أنشدت نصاً شعرياً موضوعه الفخر ، غالباً ما يكون تحت ضغط تحد فى موقف ما ، فهو يلجأ إلى الفخر لمواجهة هذا التحدى .

من ذلك ما ورد فى كتاب " اختيار الممتع " ؛ حيث روى مؤلفه هذه القصة :

" حدث يموت بن المزرع أن امرأة من العرب كانت أمها فارسية ، وكان بنو عمها كثيراً ما يعيبونها بأمها ، لما كثر ذلك عليها أنشأت تقول :

من آل فارس أخوال أساورة ... هم الملوك وقومى سادة العرب

وجدتى تلبس الديباج ملحفة ... من الفريد ولم تقعد على قتب

١- دكتور على الجندى ، " فى تاريخ الأدب الجاهلى " ، ص ٣٦٤

فقلن لها : أوجعت قومك ، فقالت : هم والله أشد إيجاعاً ، وما قصدت إلا دفع أذاهم " [1].

فالقصة - هنا - بينت الأسباب التى دفعت المرأة لقولها الشعر فى موضوع الفخر بل وأضافت بسردها تدعيماً داخل المتلقى ، ليرى النص الشعرى بصورة فيها تأييد أكثر هذا التأييد من شأنه أن يرفع القيمة الفنية والهدف الذى وضع له هذا النص .

ولا يقف دور السرد عند هذا الحد من تبين السبب وراء الإنشاد ، بل وقد يكشف الستار عن معانى الأبيات التى استخدمت فيها الكناية بفنية عالية ، ولا تظهر البراعة الفنية فى النص الشعرى إذا أنشد وحده ، وإنما يقوم السرد بكشف ذلك من خلال أحداث القصة .

من ذلك القصة التى جاء فيها :

" أن الحجاج أمر صاحب حرسه أن يطوف بالليل ، فمن رآه بعد العشاء ضرب عنقه ، فطاف ليلة فوجد رجلين يتمايلان وعليهما أثر الشراب ، وأحاط بهما الغلمان فقال لهما صاحب الحرس : من أنتما حتى خالفتما قول الأمير وخرجتما فى مثل هذا الوقت ؟ فقال :

أنا ابن من دانت الرقاب له ... من بين مخزومها وهاشمها

تأتيه بالرغم وهى صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين ، ثم قال للآخر : من أنت ؟ فقال :

أنا ابن الذى لا تنزل الأرض قدره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود

ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

---

١- اختيار الممتع ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

فأمسك عن قتل الآخر، وقال : لعله من أشراف العرب ، واحتفظ بهما ، فلما أصبح دفع أمرهما إلى الحجاج ، فأحضرهما وكشف عن حالهما ، فإذا الأول ابن حجام والآخر ابن فوال ، فتعجب الحجاج من فصاحتهما ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب فوالله لولا فصاحتهما لضربت عنقهما " [1] .

فالقصة كشفت المعانى الحقيقية للنص الشعرى ، ولولا السرد ، لفهم المتلقى الأبيات بنفس فهم صاحب الحرس ، فالنص على إطلاقه يشير إلى أن الأول من أقارب أمير المؤمنين – مثلاً ، والثانى من أشراف العرب ، لكن السرد كشف هذه المفارقة ، ولذا ارتفعت قيمة النص الشعرى ، ارتفاعاً موازياً لارتفاع صاحبه به .

وفى الرثاء تقوم القصة بإظهار الظروف التى قيلت فيها الأبيات ، هذا ويضيف السرد إلى النص الشعرى أبعاداً لم يكن ليكتسبها النص الشعرى وحده بدون حدث ، فقد يعمق الشعور بالحزن الذى يوجد فى الأبيات ، بتميم الحدث بوضع نهاية ملائمة للموقف من ذلك ما جاء فى القصة التالية :

" نزل رجل من بنى كلاب يكنى أبا حبال على عبد الله بن عمر بن حفص ، ومعه ابنه حبال ، فمرض ابنه ثم مات ، قال عبد الله : فأمرنا أن نكفنه ، فكفناه وحنطناه ، فلما فرغنا من أمره استأذن أبوه أبى أن يدخل عليه فيسلم عليه ، فأذن له فدخل فانكب عليه فسمعناه يقول :

فلولا حبال لم تنخ بى مطيتى ... بأرض بها الحمى ببرد وصالب

وقائلة أرداك والله حبه ... بنفسى من حبال من خليل وصاحب

فجعل يردد ذلك ، ثم فقدنا صوته ، فقال لنا أبى : انظروا ، فإنى والله أحسبه قد مات ، فدخلنا فوجدناه ميتاً ، فجهزناه ، وحملناه مع ابنه " [2] .

---

١- حلبة الكميت، ص ٤٦ .

٢- أبو العباس أحمد محيى،"مجالس ثعلب "،تحقيق عبد السلام هارون،ط ٣(القاهرة، دار المعارف ، د . ت ) ص ٦٥

إن وجود النص الشعرى فى سياق الحدث ، جاء متبوعاً بمثل هذه النهاية أكسب النص الشعرى لدى المتلقى عمقاً ؛ إذ صدق موت الأب على رثائه ابنه ، فجاء الموت مجسداً للنص الشعرى فى الحدث .

وكما تعرف القصة المتلقى بالأسباب التى دفعت إلى الإنشاد ؛ تخلق لديه – أيضاً نوعاً من الإحساس بالمفارقة التى يحملها الحدث ، من ذلك المفارقة الواردة فى القصة التالية ، والتى جاء فيها :

قال كردم بن معبد المغنى : " مات أبى وهو فى عسكر الوليد بن يزيد ، وأنا معه فنظرت حين أخرج نعشه إلى سلامة القس وجارية يزيد بن عبد الملك ، وقد أضرب الناس عنه ينظرون إليها ، وهى آخذة بعمود السرير ، وهى تبكى أبى وتقول :

قد لعمرى بت ليلى ... كأخى الداء الوجيع

ونجى الهم منى ... بات أدنى من ضجيعى

كلما أبصرت ربعاً ... خالياً فاضت دموعى

قد خلا من سيد كا ... ن لنا غير مضيع

لا تلمنا إن خشعنا ... أو همنا بخشوع

قال كردم : وكان يزيد أمر أبى أن يعلمها إياه ، فندبته به يومئذ " [1] .

فالمفارقة التى أضافها الحدث للنص الشعرى ، هى أن الأبيات التى ندبت بها سلامة معبد ، كان معبد يعلمها إياها فى حياته ، إن معرفة المتلقى بهذا تجعله يعود لقراءة النص مرة أخرى فى رغبة لتحرى معانيه ، وتخيل كيف كان معبد يرددها .

كل هذا يشير إلى أن الحدث يمكن أن يغير وجهة النص الشعرى ، ويجعل قارىء القصة يقف وراء الأسباب التى دفعت الشاعر أو شخصية الحدث إلى الإنشاد .

---

١- الأصفهانى ، " الأغاني " ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ( القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩م)، جـ١ص ٣٧

ومما يدل على أن القصة تؤثر فى اتجاه النص ودرجة تلقيه ، أنها قد تجعل مبررات لنص فيه هجاء وتجعله مقبولاً .

من ذلك القصة الواردة فى كتاب الأغانى والتى جاء فيها :

" أن معبداً عاش حتى كبر وانقطع صوته ، فدعاه رجل من ولد أسيد بن أبى العيص بن أمية ، فضحكوا منه ، وهزئوا به ، فأنشأ يغنى :

فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم قمدون سودان عظام المناكب

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيراً فى عراض المراكب

وهذا شعر هجوا به قديماً ، فقاموا إليه ليتناولوه فمنعهم العثمانى من ذلك ، وقال : ضحكتم منه حتى إذا أحفظتموه أردتم أن تتناولوه ، لا والله لا يكون "[1] .

فالموقف يجعل لمعبد مبرراً فى ترديده الشعر الذى هجوا به ، فربما لو لم يكن السبب مذكوراً لما عذر فى ذلك .

من النماذج السابقة يتضح لنا أن الأغراض على اختلافها تكتسب وجهة جديدة داخل الحدث ، بل وربما تتغير معانيها ، وتتكشف الكنايات البعيدة منها ، ولذا فهى مقيدة إذ قيد الحدث اتجاهها المعنوى وقيمتها الفنية ، وهى سببية ؛ إذا كشف السرد عن أسباب إنشادها ، ومناسبة قولها .

---

١- الأغانى ، جـ١ ، ص ٣٨ .